

# الأمراض العصبية

ومرض النفوس

للكاتب ابراهيم ناجي (١)

إن موضوع النفسيات المريضة في المجتمع يحس صميم أخلاقنا وحياتنا الاجتماعية من أول العقولة إلى آخر مرحلة في العمر. كنت أحاضر ذات ليلة في موضوع قريب من هذا في معهد التربية وكان الحديث خاصاً بفرويد. فسألني أحد الأديباء عن سر اهتمامي بفرويد، قائلاً إن مذهبه يحلل النفوس المريضة دون النفوس السليمة السوية، فهو مذنب قليل النفع من هذه الجهة. فسألته «أين هو الرجل السوي يا سيدي؟» إن لكل منا شذوذه، ولكل منا أمراضه النفسية التي يحملها صابراً، ولكل منا حزنه البالغ حيناً، وصنعه الطويل أحياناً واقفعله إلى حدود الجنون أحياناً أخرى ...»

حين أتكلم عن الأمراض النفسية الشائعة، فكلما يشغل أحوالاً عامة، أحوالاً تحس كل عقل وكل روح، غير أن هاته الأحوال قد تكون قليلة أو متفرقة في شخص ما فلا تحدث أنراً، ولا تسوقف نظراً، وقد تجتمع في شخص آخر، على شكل خاص نتحدث مرئياً خاصياً. وقد يتغير مظهر تلك الأمراض، باختلاف الأحوال والبيئة والوراثة، فيتخذ المرض اسماً آخر. فالترق ليس ببدءاً بين السليم والمريض، وبين المريض بالعمى البسيط والعمى المعقد، وبين العمى المعقد، ... ومستشفى المجاذيب!

والأمراض العصبية الشائعة هي على الترتيب: - (١) مركب النقص. (٢) مركب القلق. (٣) النورامانيا. (٤) الهستيريا. (٥) الجنون. وقد رتبناها بحسب كثرة شيوعتها  
﴿مركب النقص﴾ ليس في الوسع فهم هذا المركب الشائع بغير الرجوع إلى الحديث عن العقل الباطن. والمقام لا يتسع للإطالة في موضوع العقل الباطن البلية  
بني فرويد نظرت على الصراع القائم في العقل الباطن - وفرويد لم يخترع العقل الباطن وإنما حدد معالمه ووظائفه، وفصل القوى المتناضلة في داخله، وتأثيرها في حياة الفرد والمجتمع وتبع تلك القوى المتضاربة من عهد الطفولة إلى أن تستمر نضجها في الرأفة والشباب

وخلامة هذا النضال ، إن الانسان يولد وفيه دوافع غريزية فسيمة تائرة ملححة . ويقسم فرويد هذه الدوافع قسمين كبيرين ، الدافع الاول للمحافظة على الذات ، والثاني للمحافظة على النوع ، أي ان ، الاول خاص بالحياة ، والثاني بالحلب . وفي رأيه ان الحب أقوى الدافعين وهو هو البركان الذي يكن في أعماق النفس ، والزوال الذي رجشها رجشاً !

وهو هو الذي يفرغ الحياة في قلبها الخاص ، أو — على حد تعبيره — يهيء لها « أسلوبيها »<sup>(١)</sup> . وقد اختلف معه تلاميذه ولا سيما ادلر ، فقال ان الدافع الثاني ( الجنس والحب ) مستمد من غريزة البقاء فلامعنى لفصله عنها ، وقال إن الانسان يولد بإرادتين ارادة القوة و ارادة الاجتماع أما ارادة القوة فتستمد توتراً من الغريزة الكبرى وهي المحافظة على الذات ، ومنها إنبات الذات وتوكيد وجودها ، وهذه هي الغريزة المسيطرة الواضحة في الصغير والكبير .

في الصعلوك والامير . وهي عقيدة المسقد في فهم أكثر المسائل النفسية . ولكن هذه الغريزة تختلف كجميع التفرات الأخرى في شخص ما عنها في آخر ، بحسب التركيب الجنسي ، وبحسب الاستعداد الوراثي ، ويختلف أثرها فيما بعد بحسب الوسط والاحوال . خذوا مثلاً الطفل ، أنه يحاول طول يومه ان « يؤكد » ذاته ، ويحاول ان يريك ما صنع وما سيصنع . ولما كانت كل ميكولوجية الطفل واضحة في لعبه فنظرة واحدة الى الطفل وهو يلعب تبين لنا أنه بذلك « اللعب » يحدث في اثبات شخصيته . وخذوا مثلاً الشحات الحقيق ، أنه يستجدي ولكنه لا يسح لك أن تتجاهله أو تهينه . والموظف الصغير الذي لا قيمة له إذا أرسل لك أيها الموظف الكبير بطاقة على سبيل المائدة ، فأهملته ولم ترد عليه أمرها في نفسه وعدّها اهانة موجبة الى تلك « الذات » التي تحاول اثبات وجودها في جميع الافراد والاحوال .

كان لي صديق من الاطباء يحاول ان يكسر « أنف » رئيس المرضين ، فكانت الثورة لانه بدأ في المستشفى ، ولم يكن صديقي الطبيب يدري من معنيها او ما حبها . قلت له « أنت تريد أن تكسر « أنف » رئيس المرضين ، والله جعل له ذاتاً تتور على ذلك الضغط ، فأنت تحاول سحقها من ناحية وهي تحاول اثبات وجودها على المرضى وصائر المرضين ..... ! » وهذا سرّ الثورة ... فلما كفى عما كان في ميوله هنا كل شيء .....

إن محاولة اثبات الذات ، تتطلب الشعور بما ينقصها لكي تستكمله ، وقد يكون النقص واضحاً ، او يكون الشعور به حاداً ، او يكون التوصل لتغطية النقص ضيقاً او شاذاً ، فهذا الشعور بشيء ينقصنا ومحاولتنا سد هذا « العجز » ، هو ما يسمى « مركب النقص » فيتضح ان مركب النقص قائم فينا جميعاً اذ ليس منا من ليس به نقص ، وليس منا من

لا يسمى ال سد ما يشعر به من فراغ ، ولكنه عند بعض الناس محاولة معقولة ، وسبيل الى الكمال مترن محترم ، وعند بعض الناس مرض بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وعند آخرين مرض عصبي معتقد قد يؤدي الى أخطر العواقب . لم هذا الاختلاف ولم يكون النضال لسد النقص مترنًا معقولاً في هذا وأحمق مجنوناً في ذلك ؟ مع ان النقص قد يكون واحداً في كليهما ؟ نحن أبناء الوراثة ونحن أبناء الوسط . أما الوراثة فلا نزاع في شأنها الخطير . ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك اننا نرث العصبي او نرث الجنون . واتمامن نرث اتجاهات خاصة وخصائص ذهنية متناثرة . وهذه الاتجاهات والخصائص هي كالعناصر الكيميائية سواء الايسواء ، وكما ان هاته العناصر تتفاعلها ، وتلاقيها ، وما يحيط بها من انثرات ، قد تحدث مركباً متفجراً ، او مركباً لا تقع فيه ، او مركباً نال القيمة نافعاً بعيد الأثر . كذلك الاتجاهات والخصائص الموروثة وقد قسم كرنيلنج الشخصيات على هذا الاساس الى شخصية هدامة ، وشخصية خاملة ، وشخصية خلافة . وفي الوسع اذا حللنا طقولة كل بالغ ، واستعرضنا ما كان واضحاً من اتجاهاته الذهنية ، وانثرات اطارجية التي أحاطت بشخصيته وكيفية استجابته لطاته انثرات ، ان نعرف بالتقريب من أي طراز سيكون . على انه قد تظل هاته الاتجاهات كما هي لا تتغير ، وتظل صاحبها على شدوذه ، وعلى غرابة اطواره ، فاذا أصابه ما يضعف أعصابه ، او يصدفها صدمة قوية ، فان هذا الشذوذ ينقلب الى صنف من الأمراض العصبية محدود جلي ، لمن أحاط بما سبق ذلك المرض من الاتجاهات الذهنية للمريض

أضرب مثلاً لذلك : شخص يعرفه ، وجدناه جفاً قد ابتعد عن الناس ، وصار لا يهتم بأي شيء عاطفي ، من حزن او فرح ، وغدا يحذر الناس ويعتقد ان كل ما يقولونه او يعملونه موجه الى شخصه بالذات . هذا مرض نسميه الشيزوفرينيا . ولكنه قبل ان يكون مرضاً ، يتضح ان صاحبه كان ميالاً الى العزلة ، منسباً على ذاته ، محبباً لها ، شديد الخلد من الناس فلما اغترفه من المنثرات ما جعله يعقل حقيقة أخذت اتجاهاته تتلاقى في النقطة المنتظرة يتضح مما ذكرت شيثان : اولاً — تأثير الوراثة ، وانها ليست الا اتجاهات وخصائص ، وثانياً — اننا بالتربية والبيئة يمكننا ان نؤثر في هاته الاتجاهات فلما ان تقف ثابتة لا تتغير ، وإما ان تنتج شيئاً نافعاً . وقال كرنيلنج ان خصائص المبقر هي خصائص مرضية محضة ولكنها يفعل أحوال خاصة ، ومؤثرات بعينها ، تتلاقى فتكون ماسة عقبرية متألقة ...

قد يكون مركب النقص غير ملموس فيعد طبيعياً ، وقد يكون عنيفاً ، فيؤدي الى أوحم المراتب او الى أبعد ما صدق وأعجبها دورياً ، وما مثل نابليون وأشباهه بعيد وقد يكون الشذوذ متوسط العنف ، فيؤدي الى حالات فردية في المجتمع فلاقيها كل

يوم ومن فرط ما نراها لعلها غريبة وشاذة ولا نمدُّها مرضاً مثال ذلك : التفسير القامع  
التي يندفع الحيل ليبدو طويلاً ، والأصلع الذي ينسي شعره من أسفل أو من الجانب ليغطي  
به صلعته ، والجامل الذي لا يبتك بدس كلة اجنبية بين حين وآخر في ما يقول ، والمثلة  
السينائية التي تنهات على فلم ماقط لتظهر ولو مرة واحدة على الشاشة في دور ضئيل : ثم ماذا  
يذهب الناس الى السبا لمشاهدة أدوار البطولة ؟ لماذا يخص سبنا « أولمبيا » و « اديال »  
بمشاق البطولة . . . انهم انما يكلمون على الشاشة ما يتقصم في انفسهم . كل يكلم في خياله ما  
ينقصه في حقيقته ...

﴿ مركب الخوف ﴾ هذا هو مركب النقص في أبسط صورده . فإذا زاد عن ذلك أدى  
الى المركب الثاني ، وهو مركب القلق ، أو مركب الخوف فان الناقص الشخصية اذ يحاول تكملتها  
يصطدم بمجاول متعدد ، يصطدم اولاً بالتفاوت بين ما به وبمجهوده ، وبصطدم بما يذكره دائماً  
بنقصه ، وبصطدم بما هو من أول خصائص تلك العلة ، وهو استدامة التفكير في النفس ، ومحاولة اشباع  
رغباتها ، والاعتزال معها او في كنفها ، الى حد التبعاد عن الناس والشك فيهم والحقد عليهم  
كل هذا النضال العنيف ، التوجه الى هدف من التفوق الحاد السريع ، الى النجاح بأي  
ثمن ، الى الهلم اذا شاء الامر ، الى كل وسيلة توسع الغاية ، يحدث في نفس القائم به ما نسميه  
« عصبي القلق » وأم أعراضه الشعور بان الانسان على حرف هاوية ، أو على رأس بركان ...  
ولا ثقة بالغد ، ولا اطمئنان للناس ، ولا امان من القدر

اذن فما يصنع هذا الخائف المضطرب ؟ إما ان يعمل ليل نهار دائماً في ازالة هذا الخوف ،  
وفي طلب الامان ، بالدفاع عن نفسه كما يفعل الجيش المحاصر

وإما أن يتخادع نفسه ، ويدعي انه شجاع ، وأنه لا يخاف شيئاً ولا أحداً ، فتحول خوفه  
من سبب بعيد الى أمر يتعلق بنفسه ، وبذلك السبب البعيد . مثال ذلك : ان أحد الاطباء كان يخاف من  
منظر باقات الزهر ويهرب منها ، والسر في ذلك ان هذا الطبيب كان في أول أمره منكود  
الظالم اذ كان الحظ لا يساعده في شفاء مرضاه فكان يقضي الليالي وهو يسأل نفسه ويلومها ،  
ويقول من يدري ربما لو كان الطبيب الفلاني الشبير هو الذي يعالج المصاب لشفي ، ولكنه  
عندما تقدم في العمر والمقام الاجتماعي ، تنلب على هذا القلق ، إلا أنه في الواقع خاب في عقله  
الباطن ، فتحول ذلك الخوف الى باقات الزهر لانها توضع على قبر الموتى ...

وفي الوسع رد كل شيء من هاته المخاوف العجيبة الى حادثة معينة في مبتدا العمر ...  
أضف الى تلك المخاوف الخوف من الظلام ، ومن بعض الحشرات الصغيرة ، ومن الخوف  
بالخاوية . ومن أعجب ما يتداعى بهاته المخاوف ، ان تظل في المره فكرة حائرة تطرق باب الوعي

لتخرج منه ، وترج نفسها زجاً في غير موضعها ومن غير مناسبة ، وتسمى هاته الحالة بالفكرة الثابتة ، وقد لا تكون فكرة بن عملاً خاصاً ، فمن الناس من يفاجئ الضحك في المآتم ومن الناس من ينادر ديوانه ليعود الى منزله ليستوثق من انه أغلق باب البيت هاته انصكر الثابتة تبدأ أول أعراض الجنون ، فإن الجنون مثلاً يضحك في أحد أوقات الحزن . والناس يقولون طبعاً « شوقوا الجنون ده » . . . ولكن هناك فرقاً واحداً يجب ادراكه ، وهو ان صاحب الفكرة الثابتة يحمي الدافع آتياً من الداخل ، من أعماق نفسه ، وثانياً لا يلبث ان يقوم بالصلة حتى يندم ويقول « لماذا فعلت هذا » . . . أما الجنون فالذائع يأتيه من الخارج . والثاني ان الجنون لا يحس بالندم ، وقد انقطع ما بين وبين العالم الخارجي . فأصبح لا يبالي بما يقوله الناس . والكلام عن الفكرة الثابتة يذكرني بقصة قرأتها لدو هاميل : كان سلافان كاتباً في شركة وكات عنده فكرة ثابتة عجيبة وهي ان يمس بأنامله كل شيء أحمر ، وكان رئيسه ذا أنف أحمر متورم من البرد فظل أياماً طويلاً يريد ان يمس ذلك الأنف الأحمر ويرد نفسه ، وأخيراً اتكى على الله ووضع يده على الأنف الأحمر الكبير . فارتاع الرئيس وظن سلافان مجنوناً ، وأخرج مسدسه من جيبه ، واستدعى رئيس الحسابات قائلاً اعط هذا الرجل حساباً عندنا !

ولعدة الدافع لهاته الفكرة يسمى هذا بمرض « الدوافع العصبية الاضطرابية » خلاصة ما قلته ان غريزة المحافظة على الذات ، تؤدي الى اثبات الذات ، تؤدي الى مركب النقص ، تؤدي الى مركب التعلق والظوف ، وقد تؤدي الى مركب الفكرة الثابتة . . .

« العلاج » : أحسب الثراء يتساءلون هل يحدث هذا لكل شخص وما تلاجه ؟ وهل يمكن ان تنقيه ؟ نعم يمكن ان تنقيه اذا عرفنا ما يحدث في الطفولة على وجه صحيح قلت في بدء المحاضرة ان الطفل يولد بارادتين ارادة القوة ، ولادة المجتمع . . . ولولادة القوة حلة مرادفة لاثبات الذات . فاذا نصح بهذه الصفة ؟ أنقلها ، أمحوها ؟ إن الاطفال الذين نوكل اليهم تربيتهم ثلاثة أنواع . الاول طفل مدلل . والثاني مدلل ثم أهمل . والثالث طفل متروك . فالاول هو أسوأ أنواع الاطفال ، وهو عندما يشب يطلب من المجتمع ما لقيه من ذويه أي ان يبدله ويحجب كل ما يطلب ، وثانياً هو شخص تعود ان يشكل على آية وأمه ، فهما يكبر فانه يظل « طفلاً كبيراً » قليل بالثقة بنفسه مطلق الاعتماد على غيره . وهؤلاء « الاطفال الكبار » ملء المجتمع المصري ، يكون الرجل ضخماً طويلاً عريضاً مفتول الشاربين ، ولا يحسن التصرف في أبسط الأشياء فاذا وقع في أقل المعنلات بحث عن غيره ليحلها له . . . أعرف من هذا الطراز رجلاً طويلاً عريضاً ضخماً اذا مرض سأل بواب

البيت « أروح لمن ». وإذا جئتني سحبتني إلى زوجة وهي نحية ، وهي التي تتكلم وتتفام وتدفع « اقلوس » . . . وأعرف من هؤلاء « الاطفال الكبار » من بلغ أرقى المناسبات ولكن له نزوات مقل وبدوات رضيع

كنت ذات يوم مسافراً في القطار وكان معي رجل ضخم الجسم ، ومعها عما غليظة مخيفة وكان يتحدث إلى شخص ما كمر يتعمد أن يثيره ، فرأيت هذا المملاق يفعل كالطفل ، وحداً كالطفل ، ويثرثر كالطفل ، ويقرع الأرض بالمعا ، لملها تنوب عنه في التذكير بالرجولة وهؤلاء الاطفال المدللون ، عندما يعدم المجتمع فلا يجدون معيماً ينقلبون أفانين من الطراز الرأقي الذي يملأ بطن شوارعنا ، أولئك الذين يمتقدون أن على المجتمع أن ينفق عليهم ويتكلف بهم ولذلك حين يطلب الواحد منهم شيئاً منك يمتقد أنك مكلف أن تنفق عليه . . . . وإذا رفضت أن تعينه غضب ولمن وسب كأن له عليك حقاً . .

أما الطفل الذي من النوع الثاني فهو مقل كان مدلاً فأهل . فهذا تخنيء في نفسه فكرة فائرة حاتقة تلازمه طول حياته . الطغنة الأولى التي لا تسمى مطلقاً . وهؤلاء هم الذين يتورون في قرارة نفوسهم على أي مكان في المجتمع غير المكان الأول البارز . ويتورون من كل حفل لا يتألقون فيه ، ومن كل موضع لا يكون لهم الصدف فيه . ويتوارون من كل رجل مشرق لامع يحمل امرأة شاحبة بجمانه . وهؤلاء كذلك كوظفين دائماً يكرهون رؤسائهم ويحقدون عليهم « ويروضون لهم المقالب » . وتطلعون ابداً إلى كراسي الرأسة وفي سبيلها يعملون المستحيل . أما الطفل المتروك ، فصنمان الأول قد يتعود أن يتمد على نفسه ، ويكون ناقماً له هذا الترك ، أو يترك ويساء إليه مما ، فينشأ الطفل الذي يندو فيما بعد مجرماً وسفاكاً وعدواً للمجتمع ماذا نصنع إذن ؟ الغرض من التربية الصحيحة الأول أن لا تكسر غريزة اثبات الذات ، بل نلجها ونكبحها كبحاً معقولاً ونحسن توجيهها . والثاني أن لا نسرف في التبدليل ، بل نمود طفلنا شيئاً من الصبر على المحسنة والمكارة ، حتى لا ينفاجاً بعسر الحياة فيما بعد مفاجأة تصدمه . والثالث أن نعدل بين اطفالنا ، لكي لا يظعنوا في كبرياتهم الغضب . والرابع وهو الأهم . وعلية مدار الرقي والسلام والعودة . . . عليه كل شيء ، أن نرفع فيه غريزة « ارادة المجتمع » ونهذبها ونطلق لها العنان . . . .

إن بت هذه الغريزة على وجهها الصحيح يقضي على ما يسمى مركب النقص ويحور تواعبه أن المريض بمركب النقص شخص منطوق على ذاته مريض بنفسه وأهوائها وهو لا يسعى إلى غرض لذاته بل ليشرق على هذا الشخص أو ذاك ، هو في الهيئة الاجتماعية جواد سباق . وقد يدوس الجواد الذي يتأنس ولا يبالي أو يعنه أو يأكله . . . ما دام الهدف أمام عينيه

ولكن ارادة المجتمع على وجهها الصحيح معناها ان يخرج القتل من دائرة نفسه لئلا يده الى اخراته في المجتمع على قدم المساولة ، هو واحد منهم ، واذا نأفهم على أمر فاعا بنافهم لا لاشخاصهم وذواتهم ، ولكن من أجل فرض سام رفيع يسمى اليه ويدأب في سبيله ليل نهار. والواقع اننا يجب ان نتجنب طفلاً سليماً لكي نتجنب رجلاً سليماً. والطفل السليم الروح والاعصاب هو الذي أحسن والده عنده تربيته الغريزية القوة وغريزة المجتمع والآن نفرض ان مركب التقص كان على أشده طرفاً وعنفاً فالأم يؤدي ؟؟

نعود الى فرويد . كل حديثنا الماضي كان عن ناحية واحدة من نظريته وهي غريزة المحافظة على الفرد ... والواقع ان فرويد بنى كل مذهبه على ان الحب هو كل شيء ، حب الأم وحب الأب وحب المجتمع وحب الرفاق ، وأخيراً الحب المنتهي بالزواج . وظل يقول طول حياته ان هذا الحب وجموحه هما السبب في جميع الأمراض النفسية الشائعة ، ولكنه في آخر أيامه عدل عن هذا الرأي في الحب ، وأخبرنا ان الحب تلازمه غرائز كره وتحدٍ وهدم ، وأن اللذنية ما هي الا كبح جماح هذه الغرائز البغيضة الشاذة . . . ونخبرنا أنه عندما يكون النضال النفسي عنيفاً تتمزق للنفس شقايها ، وتسيطر هذه الغرائز اللعينة ويكون لها المقام الاول . وهذا ما يحدث في الجنون ، فن الجنون قد ارتدّ عقله الى عالم داخلي متقطع عن الخارجي ، بل ارتدّ الى مناطق الطغولة الأولى ، وكما قلّ التكافل بينه وبين العالم الخارجي ، كذلك قلّ التكافل بين أجزاء المخ ، ولذلك تستيقظ فيه غرائز الهدم والتجدي معها يكن نوع النضال ومنتشره من الحب او البغض فهو نضال منوع ، إنه أولاً بين العقل الباطن والعقل الواعي ، وثانياً بين العقل الواعي والرقب ، وثالثاً بين جميع هذه العوامل مجتمعة والعالم الخارجي . ودرابها هو غالباً نضال خفي بين رغبات مطوية وبين طلم لا يقرها ولا يبوحها . وقد يكون النضال في سبيل رغبة اجتماعية أو في سبيل رغبة جنسية . ولكنه في كلتا الحالتين منهك للقوى فوق ما يقتضيه من مجهود جسدي ، والنصب الناشئ عنه لا ينقضي مع الراحة ، واذا انتهى فكثيراً ما يعاود

وهذا المجهود العصبي المؤذي الى لحظات الاعصاب هو ما يسميه الاطباء بالنورامانيا . والمرضى بالنورامانيا شخص أعصابه تجهدة منهكة ، وهو تب حقيقي ، وليس وهمياً ولا خيالياً . قد يكون منتشره وهماً او خيالياً ، ولكن المرض ليس وهماً ولا خيالياً ، وهو مرض يحدث للافصياء المتصفين بسمة الوعي ، فان الكبت الباطني يجمد منذاً عن طريق الروح . أما الذين يتصفون بضيق الوعي ، كالتوسطي الذكاء ، فان الكبت يجمد منذاً عن طريق الجسد فتحدث التشنجات والتقلصات وما الى ذلك وهذا مما يسمى بالهستيريا